# العولمة الثقافية وعولمة الهوية

**عبد العزيز شعبان**

**جامعة مولود معمري، تيزي وزو**

"إنَّ الأمَّة العاجزة عن المحافظة على جوهر كينونتها وروحها الحضاري والدِّفاع عن خصوصيَّتها ... أي القابلة للذَّوبان في أيِّ محلول حضاريٍّ غريب عنها، ليست جديرة بالبقاء، ولن تجد من يأسف عليها". عزت السيد، انهيار مزاعم العولمة ص77

إنّ الذي يهمنا في هذه الورقة البحثية ليس تحديد ماهية العولمة وتعداد أوصافها أو البحث في جذور نشأتها أو تكوُّنها والغور في أعماق التاريخ للبحث عن هذه الظاهرة القديمة الحديثة. بل إلقاء الضوء على خطر العولمة الثقافية باعتبارها إستراتيجية للهيمنة والقوة وبسط السيطرة على العالم بقيادة طرف واحد، يذهب مسعود ضاهر إلى أنّ العولمة: "ليست سوى الوجه الآخر للهيمنة الإمبريالية على العالم تحت الزعامة المنفردة للولايات المتحدة الأمريكية".[1] وهذه الظاهرة "مفروضة بالقوة الغاشمة للولايات المتحدة وبالقوة الغاشمة لاقتصاد بعض الشركات متعددة الجنسيات التي تأخذ من أمريكا وبعض الدول الأوروبية مركزا لها"[2]، أليس هذا ضربا من الاستعمار؟ أليس هذا هو الاستعمار الجديد في مرحلة ما بعد الكولونيالية؟ أليس حبّ الهيمنة والسيطرة والقوة سمات الشخصية الاستعمارية؟ أليست العولمة الثقافية هي الاستعمار الفكري نفسه؟ ما هي العولمة الثقافية وكيف تسعى إلى عولمة الهوية؟

العولمة عند برهان غليون "هي التطور الطبيعي للحضارة منذ أقدم الحقب التاريخية حيث انتقلت تقنيات الثورة التقنية الأولى المسماة بالعصر الحجري، ثمّ التقنيات المرتبطة بالعصر الحديدي... فالزراعي والتي بدأت منذ عدّة آلاف السنوات قبل الميلاد".[3] وبالتالي فإنّ هذه العولمة هي حتمية تاريخية، وهي الناتج المنطقي لتطور الفكر البشري عبر العصور عملا بنصّ المقولة القائلة "**فكّر بقدر ما تملك**". وإذا أسقطنا هذا المفهوم على التطور العسكري لوجدنا أنّ الاستعمار في أول الأمر كان يركز على امتلاك عدد كبير من الجنود لكي يمتلك القوة، ثمّ انتقل إلى ضرورة امتلاك كمّ هائل من الأسلحة، ثمّ الرغبة في امتلاك أسلحة نوعية، وفي مرحلة من المراحل أين صارت المستعمرات سوقا ومستهلكا للمنتجات الغربية لم تعد هنالك من حاجة أو داعٍ إلى الأسلحة بقدر ما هم –أي ممثلو الاستعمار–في حاجة إلى آليات لاستعمار العقول واستلابها، ومن هذه الآليات العولمة الثقافية.

ويذهب محمد عابد الجابري إلى أنّ العولمة ليست مجرد آلية من آليات التطور الرأسمالي بل هي أيضا وبدرجة أولى عقائدية تعكس إرادة الهيمنة على العالم، والعولمة التي يجري الحديث عنها الآن نظام أو نسق ذو أبعاد تتجاوز دائرة الاقتصاد، إنّها نظام عالمي أو يُراد لها أن تكون كذلك، يشمل مجال المال والتسويق والمبادلات والاتصال... كما يشمل أيضا مجال السياسة والفكر والعقائدية... فالعولمة إلى جانب أنّها تعكس مظهرا أساسيا من مظاهر التطور الحضاري الذي يشهده عصرنا هي أيضا عقائدية تعبر بصورة مباشرة عن إرادة الهيمنة على العالم وأمركته".[4] والذي يهمّنا نحن هنا هو الجانب الثقافي والفكري أين أصبحت الثقافة والفكر سلعا وبضاعة تُسوّق من أجل ترسيخ النموذج الأوحد أو الثقافة الواحدة؛ الثقافة الأمريكية، أو عملية "... غربنة العالم أو بتعبير أدق أمركته على كافة الأصعدة الثقافية والاقتصادية والسياسية والمعلوماتية"[5]، حيث تمّ استغلال التقنية والتكنولوجيا كسلاح للترويج لهذه الثقافة وكإستراتيجية لاستلاب الثقافات الأخرى قصد القضاء على التعددية الثقافية، ومن أجل عولمة الهوية المركزية. وهذا ما ذهب إليه

كل من **ريتشارد بارنيت وجون كوفاناك** في مقالهما بعنوان **تنميط الثقافة العالمية**[6] حيث اعتبرا كل هذا التطور التكنولوجي والتقني كحصان طروادة يُراد به أشياء أخرى غير كسر المسافات وإلغاء الجغرافيا والتبادل الثقافي والتعايش بين الأجناس والقول بالتعددية والعمل سويا من أجل غد أفضل للبشرية قاطبة.

أمّا العولمة عند المهدي المنجرة فتعتبر مرحلة من مراحل الاستعمار الجديد الذي تسعى القوى الكبرى وعلى رأسها الو.م.أ إلى التأسيس والترويج لها ليس على مستوى الممارسة والتطبيق فقط بل على المستوى الثقافي والفكري أيضا، بفرض نمط معين من القيم من لدن دول الشمال على دول الجنوب وبتزكية أنظمة وحكومات الأخيرة، ورفض المهدي المنجرة للعولمة إنّما هو رفض لحمولتها الاستعمارية الجديدة، لبعدها الاقتصادي الإقصائي، لمحتواها الفكري المتمركز حول المنظومة الغربية ذات المرجعية المسيحية/اليهودية، لتطلعها إلى صهر كل ثقافات العالم في المهيمنة منها، لتكريسها لقوة النار والحديد (العراق مثلا)، لرفضها لمبدأي التنوع والتعدد اللذين لا مستقبل للبشرية من دونهما[7]، وبالتالي هناك ربط بين العولمة ونزعات القوة والسيطرة وحب الهيمنة على الشعوب والإبقاء على علاقة التبعية سارية المفعول على المدى البعيد وبتزكية ومباركة من الجبهة الداخلية والمتمثلة في ممثلي الشعب.

ويضيف المهدي المنجرة قائلا أن "العولمة في السياسة الدولية المعاصرة تتطلب الهيمنة لتسهيل عملية التجانس ووضع نظام جديد للطبقات المغلقة، وذلك في مختلف الدرجات حيث يمكن لقوة الأغنياء ولقوة المحرومين أن تتواصلا وفق قواعد محددة من جانب واحد من أجل مصلحة الجميع"[8]، وهنا تأكيد على أن العلاقة بين المُعَوْلِم والمُعولَم هي نفسها علاقة المستعمِر والمستعمَر، وأن هذه الصيغة الجديدة أي العولمة ما هي إلا قناع من أقنعة السيطرة والهيمنة الاستعمارية في هذه المرحلة الجديدة وهي "...تعني من الآن العملية التي يتم بواسطتها –بمساعدة صندوق النقد الدولي والبنك العالمي في الغالب– تنظيم نزع ملكية الشعوب بمباركة الزعامة المحلية التي لا يفوتها الإغتناء بالمناسبة".[9] وشراء الذمم واستخدام المال في مرحلة العولمة

هو المقابل الرئيسي لاستخدام الأسلحة في مرحلة الاستعمار التقليدية، ونجاح العولمة مرهون بالتواطؤ الخبيث من الداخل.

وبالنظر إلى كل تلك الشعارات البراقة والخادعة التي يروج لها الإعلام ونُشطاء العولمة وروادها وقساوستها وكل تلك الصور التي تُصدر من أجل قبول العولمة هذا المولود الجديد القديم من طرف المستهدفَين يعدّد المهدي المنجرة ما تمت عولمته حاليا حقيقة وفعلا هو "بكل تأكيد الفقر والظلم الاجتماعي والرشوة والاستلاب الثقافي، وهو أيضا التضييق على الحريات والحقوق المدنية"[10]، فلا مجال للمغالطات والتعمية وذر الرماد في العيون.

والعولمة حسب عديد المفكرين هي "نهاية الجغرافية"[11] أي أن يصبح العالم بلا حدود وبدون حواجز اقتصادية وسياسية وعرقية وثقافية وعلمية ومعرفية، يقول بول فيريليو: "إنَّنا نشهدُ الآن نهاية الجغرافيا، وذلك من حيث لا مكان منعزل، ولا وطن مستقل، ولا ثقافة محصَّنة"[12]، إنّه تعدٍّ صارخ على الحريات والديمقراطيات باسم العولمة هذا المسمى الجديد لنزعة استعمارية قديمة، إنّها "...تعني قتل المسافة؛ الإلقاء بالإنسان في أشكال حياتية عبر الحدود الوطنية غالبا ما تكون غير مرغوب فيها وغير واضحة"[13]، إذن يصبح العالم قرية صغيرة وتصبح الغرفة التي ننام فيها قبلة لكل ما يتوافد علينا من الغرب، من خلال منتجاتهم التلفزيونية وأفلامهم وأغانيهم، وأنماطهم الثقافية والحياتية التي تتناقض مع خصوصياتنا، وكل هذا يحدث ونحن جالسون وراء شاشة صغيرة بحجم 17 بوصة.

إنّ القول بنهاية الجغرافيا، معناه أنّ العولمة أصبحت خطرا زاحفا يجتاح كلّ القوميات وكلّ الثقافات على حدٍّ سواء، هذا ما يؤكده فرانسوا بايرو وزير التربية والتعليم العالي الفرنسي حين يقول: "إنّ هدف العولمة هو تدمير الهويات القومية والثقافة القومية للشعوب".[14] وهو الموقف نفسه الذي وجدناه في تصريح الوزير الأول الفرنسي ليونال جوسبان "بأن العولمة الثقافية تحمل في أحشائها خطر التنميط الثقافي".[15] الهدف واضح إذن، وهو القضاء على الهوية الثقافية للشعوب، بالقضاء

على كلّ خاصية مميزة لثقافة حضارة من الحضارات والعمل على نشر النموذج الذي يُراد له الرواج في السوق العالمية، ويراد له السيادة على العالم وفي هذا عمل على ترسيخ العديد من الثنائيات التي طالما سعت الدراسات ما بعد الكولونيالية إلى كسرها وتجاوزها منها: المركز/الهامش، الغربي/الشرقي، الفوقي/الدوني ثقافة مركزية/ثقافة هامشية، ...إلخ. إنّها عودة الموقف الاستعماري بوجهه الجديد، يتخفى تحت عباءة التكنولوجيا والتقنية. وهذا ما يؤكده نعوم تشومسكي حين يقول: "إنّ العولمة الثقافية ليست سوى نقلة نوعية في تاريخ الإعلام، تعزز سيطرة المركز الأمريكي على الأطراف، أي على العالم كلّه".[16] وهذا ما تبغيه وتريده أمريكا من العولمة؛ في إشباع رغباتها ونزواتها التوسعية وحب السيطرة وتملك العالم والزجّ به في نمطها الثقافي.

ولا يتوقف خطر العولمة على الثقافة والهوية الثقافية حسب الكاتب عبد الإله بلقيزر عند هذا الحد "إنها انتقال من مرحلة الثقافة الوطنية إلى ثقافة عليا جديدة 'عالمية'، وهي في حقيقتها اغتصاب ثقافي وعدوان رمزي على سائر الثقافات الأخرى، وهي اختراق تقني يستخدم وسائل النقل والاتصال لهدر سيادة الثقافات الأخرى للشعوب وفرض الثقافة الغربية".[17] ما يجعلنا نفهم جيّدا المساعي الحثيثة من وراء هذه العولمة: فهم ضدّ التعدد الثقافي وضدّ الخصوصية الثقافية، ويعملون مع مشروع التوحّد ومع مشروع تغريب الشعوب واستلابها وجعلها تعيش في قالب واحد.

إنّ عولمة الثقافة تسعى و"تهدف بالدرجة الأولى إلى إقصاء الثقافات الأخرى عن العالمية بحجة تعارضها وعدم قدرتها على الانسجام مع توجهات الثقافة الغربية المادية"[18]، بما أنها تعمل على الترويج لثقافة واحدة ولا تتعامل بنفس الطريقة مع كل الثقافات الأخرى، وتسعى إلى تحطيم كلّ الثوابت الدينية والفكرية والأخلاقية للوصول إلى بناء إنسان هامشي دون جذور قوية ثابتة، كي يذوب بسهولة في بحر الثقافة الغربية الرأسمالية المادية.[19] إنّها عملية خلخلة وطمس معالم الهوية الثقافية للشعوب، إنّها عملية سلخ الإنسان عن انتمائه وثقافته وأصله، والواقع كفيل بأن يعطينا ويمدّنا بالأمثلة اللازمة: حيث أصبحنا نرى في واقع أمتنا اليوم أناسا لا ندري ولا نستطيع

حتى أن نحدد انتماءهم فما هم بمسلمين ولا هم بغربيين، وما هم بأمازيغ ولا هم بعرب، ونحن لم نعد نفرق بين هذا وذاك، فما هم من هؤلاء ولا هم من أولئك، إنّها الفوضى تعمّ في كلّ الأرجاء. أمّا إذا جئنا إلى اللباس فحدّث ولا حرج: لقد أصبحنا نرى ألبسة غريبة ومظاهر في أغلبها مريبة، رأينا الذي يلبس في نصفه العلوي لباسا أفغانيا ونصفه السفلي يغطيه بسروال أمريكي، أو نجد العكس: سروال سنّي، وقميص عِلماني، ما يفسر تلك الفوضى في عالم الأفكار، وذاك الخلل في التكوين النفسي جراء هذه العولمة الثقافية، فمن جهة هناك الثقافة المحلية التي توصف على أنها قديمة ومتخلفة ولا تجدي نفعا في هذه المرحلة المتقدمة، ومن جهة مقابلة هناك الثقافة المروَّج لها: الثقافة المثالية، الثقافة المعولمَة، النموذج الذي ينبغي الاحتذاء به، حيث يجد الإنسان نفسه حائرا بين التمسك بثقافته أو تبعية النموذج الغربي، وكل هذا التشتت والضياع النفسي يجسده فعليا في طريقة لباسه ويطبقه في واقعه وحياته من خلال سلوكياته المختلفة.

أمّا في الأفكار فهي فوضى العولمة التي قلبت الموازين وهدّمت الثوابت ومقومات الشخصية الثقافية للشعوب، فكلّ الأفكار التي تسري في المجتمعات غربية ومستوردة، وكلّ مناهج التعليم غربية، وحتى طرق الكلام وتحليل الوقائع والأحداث غربية، فقد أصبحنا مستهلكين لكلّ شيء حتى الأمور البسيطة بدرجة امتياز. فهناك من الناس من يتباهى ويتفاخر لأنّه يتكلّم بلغة فرنسية أو إنجليزية ويرى العار والعيب في الكلام بلغته الأصلية، وقد يصل به الحال إلى أن يزدري ويستهين بكلّ المتحدثين بها ويلصق بهم صفة التخلف والتقهقر لأنهم يتكلمون لغة غير لغة أسياده.

وعلى مستوى الأكل مثلا أصبحنا نلاحظ ذاك الاكتساح الكبير للوجبات الغربية على قوائم الوجبات، ولأن العولمة تسعى إلى ترسيخ ثقافة الاستهلاك لدى الشعوب أصبحنا نجد شوارعنا تعجّ بمحلات الوجبات السريعة وهو تحوّل كبير على المستوى الفكري لمجتمعاتنا، أين أصبحت ظاهرة تحويل المكتبات إلى مطاعم للوجبات السريعة مودة المجتمع الجزائري.

وفي هذا السبيل يقول الباحث محمد آدم: "ولكن العولمة بالمفهوم المعاصر (الأمركة) ليست مجرد سيطرة وهيمنة، والتحكم بالسياسة والاقتصاد فحسب، ولكنّها أبعد من ذلك بكثير، فهي تمتد لتطال ثقافات الشعوب والهوية القومية الوطنية، وترمي إلى تعميم أنموذج من السلوك وأنماط أو منظومات من القيم وطرائق العيش والتدبير، وهي بالتالي تحمل ثقافة غربية أمريكية تغزو بها ثقافات مجتمعات أخرى، ولا يخلو ذلك من توجه استعماري جديد يتركز احتلال العقل والتفكير، وجعله يعمل وفق أهداف الغازي ومصالحه، وأكّد ذلك الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش حين قال في مناخ الاحتفال بالنصر في حرب الخليج الثانية: "إنّ القرن القادم سيشهد انتشار القيم الأمريكية وأنماط العيش والسلوك الأمريكي".[20] إنّه الاستعمار يعود بقناع جديد، لطالما تقنّع وتخفّى بأقنعة شتّى من أجل التعمية، إلاّ أنّ الأمور الآن أصبحت واضحة للعيان، إنّه استعمار جديد يتخفّى تحت قناع التقنية.

تهدف العولمة الثقافية إلى إزالة الحدود الدينية والعادات والتقاليد، حتى تكون العقول المستقبلة للمادة الثقافية أكثر انفتاحا وتقبلا لما يأتي من الخارج دون تفكير أو إعادة نظر بعد أن حطّمت كلّ بوابات المراقبة والنقد".[21] الحكاية إذن هي هكذا: تهاجم العولمة الثقافية نقاطا حساسة في الهوية الثقافية للأمم والشعوب، مستخدمة طرقا شتّى في ذلك حتى تتولد في نفوس هذه الشعوب المستهدفة نوعا من القابلية لكلّ ما سيأتي من الغرب، وفي الوقت الذي تكفّ جدران الصدّ في أيّ ثقافة عن دورها في المراقبة ونقد الوافد الجديد إليها يُدقّ ناقوس الخطر. العقول الآن مستلبة وتقبل أيّ شيء بدغمائية، وهذا ما أشار إليه المفكر مالك بن نبي في كتابه مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي؛ حين يقصد المستعمَر ثقافة الآخر فيتبنى كلّ ما هو سلبي ومقيت ويأخذ بالأفكار المميتة التي يجدها في هذه الثقافة والتي تستدعيها تلك الأفكار الميتة التي تكونت وترسبت في ثقافته، إنّه يتسوق في نفايات الغرب علّه يجد شيئا يقضي به على هويّته وثقافته.[22] وهنا نتساءل: من أين أتت تلك الألبسة المعولمَة المخلة بكلّ حياء؟ من أين أتت تلك الأنواع التي لا حصر لها من

تسريحات الشعر التي لا تمتّ بصلة لهويتنا وثقافتنا؟ من أين أتت هذه المسلسلات (التركية، والمكسيكية، والأمريكية، والهندية...) التي أصبحنا نشاهدها وللأسف في شوارعنا اليوم، مسلسلات على التلفزيونات وأخرى في الشوارع والطرقات؟

إنّه الاختراق الثقافي لكلّ ثقافة محلية، إنّه الاستلاب والغزو والاستعمار الثقافي، إنّها عملية محو وسلخ الهوية والخصوصية الثقافية التي تتمثل في الدين واللغة والتاريخ والعادات والتقاليد والأخلاق. لقد أصبحنا في زمن العولمة نبحث ونتساءل من نحن؟ فلم نعد نفرق بين هذا النحن والهُم، بين الأنا والآخر، وهذا بسبب انهيار هذه الحدود التي كانت تعمل على حفظ الخصوصيات، التي كانت تعمل على نقد ومراقبة الداخل والوافد إليها، بعدما تلاشى الحدّ الأمثل للثقافة المحلية، وبعدما تخطت الثقافة المركزية الغربية الحدود الحمراء للثقافات الأخرى. فهل هُم نحن أم نحن هم؟ إنّنا لم نعد نعرف ونفقه شيئا في زمن العولمة؟

والعولمة هي "العملية التي بمقتضاها يتمّ إلغاء الحواجز بين الدول والشعوب والتي تنتقل فيها المجتمعات من حالة الفرقة والتجزئة إلى حالة الاقتراب والتوحد، ومن حالة الصراع إلى حالة التوافق، ومن حالة التباين والتمايز إلى حالة التجانس والتماثل، وهنا يتشكّل وعي عالمي وقيم موحدة تقوم على مواثيق إنسانية عامة".[23] ونحن نسمع هذا الكلام نشعر بنوع من الارتياح، لكن الواقع يقول العكس: فلا يُحترم الإنسان، ولا تُحترم الثقافة، ولا تُحترم الخصوصية، ولا توجد تلك الرغبة في العيش معا والتي تسعى المنظمات العالمية إلى ترويجها والتشهير لها. لقد أصبحنا نصطدم بعودة قانون الغاب الذي يحكم العلاقات بين الشعوب، إنّه المنطق الداروينيي يعود فالبقاء للأقوى والأصلح. واقعنا اليوم يقول بأنّ أمريكا في مِلْحِنا، في مائِنا، في قمحنا، في ثقافتنا، في لغتنا، في لباسنا، في تفكيرنا، في مناهجنا، حتى أنّها أصبحت شرطينا ودركينا وجُمركيُّنا وجندينا الذي يحرص على إعادة الأمن والأمان إلى أوطاننا بتقتيلنا وتجويعنا وحصارنا اقتصاديا، إنّه التعايش وحبّ الآخر حتى النخاع.

إذن "العولمة هي القوة بمفهومها الشامل الاقتصادي والسياسي والعسكري والتقني والإعلامي والثقافي، وهي الأساس الذي سوف يصنع أو يكوّن شكل النظام العالمي في القرن الحادي والعشرين".[24] إنّها الداروينية الكاسحة بتعبير إسماعيل صبري أي ثقافة القوي هي التي ستسود وتنتشر وهي النموذج الذي يجب الاحتذاء به وتمثّله وما عدا ذلك من ثقافات فمصيرها البوار والموت وهو ما يؤكده كلّ من بيتر مارتن وهارالد شومان حين قالا أنّ "العولمة هي عملية الوصول بالبشرية إلى نمط واحد، في التغيير والأكل والملبس والعادات والتقاليد".[25] إنّ الهدف المنشود هو عولمة الثقافة وعولمة الهوية، بجعل الهوية الأمريكية تسيطر وتتسيّد العالم، وتعتلي عرش الزعامة والمركزية وجعل البشرية تعيش على النمط الأمريكي وتتمثل كلّ ما هو أمريكي. وهذا ما يجعلنا نقول بأن العولمة الثقافية هي تعدٍّ صارخ على الهوية الثقافية للشعوب والحضارات، وتعدٍّ صارخ على الحريات والخصوصيات، إنّها الاستعمار في حُلّة جديدة في هذه المرحلة الما بعد كولونيالية.

يذهب روجيه غارودي إلى أنّ العولمة نظام "يمكّن الأقوياء من فرض الدكتاتوريات اللا إنسانية التي تسمح بافتراس المستضعفين بذريعة التبادل الحر وحريّة السوق"[26]، فالعولمة تجعل العالم غابة صغيرة يفترس فيها صاحب القوة والسلطة الضعفاء، فيزيد من قوّته على حسابهم، ويزيدهم ضعفا على ضعفهم وهامشية على هامشيتهم، إنّها حرب البقاء فلا مكان هاهنا للضعفاء، فإمّا الموت والفناء وإمّا الانصهار والاندماج والتبعية وتمثّل الأقوياء، هذا هو القانون الذي يحكم الغابة الصغيرة عفوا القرية الصغيرة بالمفهوم المعولم.

لكن، ونحن نتحدّث عن العولمة وكأنّها الآلة التي تلتهم كلّ الثقافات وتبتلع كلّ الخصوصيات وتتجاوزها، إلى إرساء النموذج الذي يُراد له الرواج والسيادة في هذه الغابة الصغيرة، ألا يمكننا أن نُلقي باللوم أيضا على هذه الشعوب وحاملي هذه الثقافات؟ ألا يمكننا أن نقول بأنّ هذا الاختراق الخارجي ما كان له أن يكون لولا التسهيلات ولولا تلك القابلية التي وجدها الغربيون في أبناء هذه الشعوب من الداخل؟

ألا نحسّ بأنّ هنالك تواطؤا من قِبل حُماة الخصوصيات والهويات الثقافية من داخل هذه البلدان التي تمّ اختراقها؟

يؤكد علي حرب بأنّ "العولمة وإن كانت تعمل على توحيد العالم حضاريًّا بفعل التِّقنيَّات الجديدة، فلا يعني ذلك أنَّها ستوحِّد العالم ثقافيًّا أو أنَّها ستقضي على الخصوصيَّات الثَّقافيَّة. فما دام المرء يفكِّر ويتكلَّم أو يرمز ويتخيَّل، فهو يتفرَّد عبر أعماله الإبداعيَّة وابتكاراته الأصيلة. بهذا المعنى لن تصبح الثَّقافة واحدةً حتَّى داخل الولايات المتَّحدة التي تتصدَّر قوى العولمة، بل سيبقى المجال مفتوحاً أمام التَّكوثر المعرفي والتَّباين الدَّلالي والتَّنوع البشري الخلاق"[27]. لكن كيف يمكن لعلي حرب أن يفسر ما يحدث في العالم العربي والإسلامي من تمزق وتشرذم ومن ضياع ثقافي؟ نعم ربّما نشاطره الرأي حين يقول بأنّ الإنسان ما دام يُعمل عقله ويتكلّم وفق ذوقه وثقافته فلن تصل العولمة إلى مرغوبها ومُرادها. لكن ماذا لو أنّ هذا الإنسان مشلول فكريا ومخدر نفسيا، انهزامي، ويحمل في نفسه عقدا نفسية من قبيل الدونية والانبهار لكلّ ما هو غربي، والأخطر منها جميعا يحمل بداخله عقدة التبعية للآخر؟ فهل سنتحدث هنا عن الفرادة الثقافية والخصوصية والتميّز أم سنتحدث عن الاندماج والانصهار والذوبان في هذا الآخر؟

وربّما تدعونا الحاجة هنا لأن نستعير فكرة من أفكار مالك بن نبي ألا وهي **القابلية للاستعمار**[28] فحين راح الجميع يُلقي باللوم على الاستعماري ويُحمّله المسؤولية في كلّ ما يحدث بالمستعمرات كان مالك بن نبي يلقي اللوم على الذات المستعمَرة، على المستعمَر أكثر من لومه الاستعمار في حدّ ذاته، لأنه يرى أنّ المستعمَر هو الذي صنع الاستعمار وهو الذي استدعاه، بمعنى أنّه لمّا وصل إنسان العالم الذي سُمي ثالثا إلى أحطّ الدرجات وحدث انهيار على المستوى الاجتماعي وأصبح فكره مشلولا ونفسه معلولة، وكانت من صفاته الانهزامية والشعور بالنقص والدونية، استقال من مهامه التاريخية، فتكوّن معامل القابلية للاستعمار هذا المعامل

الداخلي الذي استدعى فيما بعد معامل الاستعمار. ونفس الشيء يقال على العولمة إذا ما اعتبرناها استعمارا جديدا لبس حلّة التقنية والتكنولوجيا.

فأمريكا التي تسعى إلى عولمة الهوية ممثلة في هويتها وزرعها في كلّ المجتمعات وحثّ الشعوب على الاقتداء بهذا النموذج، لا يمكن لها الوصول إلى هذا المسعى إذا لم تجد في الشعوب تلك القابلية في الاندماج والتمثّل والتوحد مع المشروع الأمريكي. إذن الأمر متوقف على الجبهة الداخلية لا على الذين سيقومون بعملية الاختراق الثقافي، وأنّ نجاح هذه العملية تحدده حالة هذه الجبهة الداخلية وهم من حماة الخصوصيات والفرادة الثقافية للأمم والحضارات.

يمكن أن نعدّد أهم وسائل العولمة في النقاطالآتية:

– القوى العلمانية الداخلية والتي تتكون من كُتَّاب ورجال إعلام ورجال التربية وتسخيرهم لصالح العولمة[29].

– الدخول من خلال بوابة اللغة لأجل إرساء قواعد الثقافة الغربية محلّ الثقافة المحلية، يقول السياسي الفرنسي بينيو: لقد خسرت فرنسا إمبراطورية استعمارية، وعليها أن تعوضها بإمبراطورية ثقافية.[30]

– استخدام شبكات الاتصال الحديثة: أقمار صناعية، قنوات فضائية، شاشات الحاسوب...

– الشركات متعدية الجنسيات.

– الشركات الضخمة التي تنتج الثقافات الشعبية كالسينما والموسيقى والإشهار.

– استخدام وسائل الدعاية والإعلام لما لها من دور في الاختراق الثقافي للحدود القومية والوطنية.

– المعاونات والقروض الأمريكية وربطها بتنمية الاتجاهات الثقافية الموالية للسياسة الأمريكية.

– التوسع في قبول الطلاب الأجانب في الجامعات والمعاهد الغربية.

إنّ العولمة الثقافية وهي تتوسل بهذه الوسائل والمعاول إنّما تسعى إلى طمس معالم الثقافات الأخرى ومحو الخصوصيات، وهي ضرب من ضروب الاستعمار والذي يطلق عليه الاستعمار الثقافي، إنّه الرغبة في التوسع وبسط السيطرة في المجال الثقافي، إنّه العمل على عولمة الثقافة والهوية الأمريكية على حساب الثقافات والهويات الأخرى، إنّه ترسيخ للعنصرية والاصطفاء الثقافي، إنّه العمل ضدّ التعايش والتعددية الثقافية، وفتح المجال أمام صراع الإنسانية ثقافيا في الغابة الصغيرة أين البقاء للأقوى والأصلح بالمنطق الداروينى وللذي يملك قوة تقنية ومعلوماتية ضخمة.

تعدّ العولمة الثقافية من أخطر أنواع العولمة، لما لها من تأثير على ثقافات الشعوب والحضارات، فهي بالدرجة الأولى تعمل على القضاء على التفرد والتميّز الذي هو سمة الثقافات، مع محاولة ترسيخ نموذج ثقافي آخر ألا وهو النموذج الأمريكي، ومنحه الزعامة والسيادة في مقابل هامشية ودونية النماذج الأخرى، والعولمة تفتح المجال على مصراعيه لعودة تسيّد قانون الغاب، أليس هذا استعمارا من هذا المنطلق؟ أليس القضاء على الثقافات باستخدام إستراتيجية الاستلاب استعمارا كذلك؟ أليس القضاء على الثقافات ونسفها هو فتح المجال أمام عولمة الثقافة الأمريكية؟ أليست عولمة الثقافة الأمريكية هي عولمة للهوية الأمريكية؟ إذن العولمة الثقافية طريق إلى عولمة الهوية. لكن كلّ شيء متوقف على الجبهة الداخلية التي تمثّل الثقافة التي يُراد اختراقها، فإن كانت تحمل تلك القابلية، وتلك النظرة التقديسية للغرب، وتشعر بالدونية إزاء كل ما هو غربي، وتحمل في طياتها القابلية للاستعمار، هنا فقط يُمكن أن نتحدّث عن الاختراق وعن مخاطر العولمة وسلبياتها، أمّا إذا كان هنالك رقيب وجدران صدٍّ منيعة، وهناك من يقوم بعملية الغربلة لكلّ وافد وكلّ جديد يلج الثقافة التي يُراد اختراقها، وهنالك رغبة في الشعب جامحة على الحفاظ بمقومات شخصيتهم الثقافية، وبتفردّهم وتميّزهم، هنا سنتحدّث عن الإبداع والابتكار على المستوى الفكري والثقافي، كما سنتحدّث عن التعددية واحترام الآخر،

وعن الرغبة في العيش سويًا، وعن استغلال التقنية والتكنولوجيا خدمة للثقافات لا في هدمها واستئصالها وخدمة النموذج الواحد: النموذج الأمريكي ثقافة وهوية.

**المراجع والإحالات:**

---

1 – عزّت السيد أحمد، انهيار مزاعم العولمة قراءة في تواصل الحضارات وصراعها، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000، ص67.

2 – مصطفى النشار، ما بعد العولمة قراءة في مستقبل التفاعل الحضاري وموقعنا منه، ط1، دار قباء للطباعة، القاهرة، 2003، ص 44.

3 – عزّت السيد أحمد، انهيار مزاعم العولمة قراءة في تواصل الحضارات وصراعها، ص22.

4 – محمد عابد الجابري، العولمة والهوية الثقافية–عشر أطروحات–، دار المستقبل العربي، بيروت، العدد 228، 1998م، ص137.

5 – مصطفى النشار، ما بعد العولمة، ص31.

6 – ينظر كتاب محاكمة العولمة، تر: رجب بودبوس، إشراف: إدوارد كولد سميث–جيري ماندير، المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر، ص85–94.

7 – ينظر: المهدي المنجرة، عولمة العولمة من أجل التنوع الحضاري، منشورات الزمن، ط2، المغرب، 2011، ص4–6.

8 – المرجع نفسه، ص11.

9 – المرجع السابق، ص13.

10 – المهدي المنجرة، عولمة العولمة، ص14.

11 – عزّت السيد أحمد، انهيار مزاعم العولمة قراءة في تواصل الحضارات وصراعها، ص15.

12 – علي حرب، صدمة العولمة في خطاب النَّخبة، جريدة السفير، العدد 8012، السبت 6 حزيران 1998.

13 – أولريش بك، ما هي العولمة، تر: أبو العيد دودو، منشورات الجمل، ط2، بيروت، 2012، ص48.

14 – الطوال عماد جمال، العولمة والتربية، مجلة المعلم–تربوية ثقافية–أنظر الموقع: www.almualem.net/maga

15 – المهدي المنجرة، عولمة العولمة، ص 31.

16 – هانس–بيتر مارتن–هارالد شومان، فخ العولمة الاعتداء على الديمقراطية والرفاهية، تر: عدنان عباس علي، مرا: رمزي زكي، عالم المعرفة، الكويت، 1998، ص 125.

17 – مجلة المجمع العربي للمحاسبين القانونيين، عدد 11، 1999، ص 58.

18– صالح حسين سليمان الرقب، العولمة الثقافية آثارها وأساليب مواجهتها، مؤتمر العولمة وانعكاساتها على العالم الإسلامي في المجالين الثقافي والاقتصادي، الأردن، 2008. ص 15–16.

19 – ينظر: المرجع نفسه، ص15.

20 – آدم محمد، ماهي العولمة، مجلة النبأ، العدد 42، ذو القعدة 1420، 2000.

21 – صالح حسين سليمان الرقب، العولمة الثقافية آثارها وأساليب مواجهتها، ص9.

22 – ينظر: مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، تر: بسام بركة–أحمد شعبو، إشراف: عمر مسقاوي، دار الفكر المعاصر/دار الفكر، ط1، لبنان سوريا، 2002.

23 – حجازي أحمد مجدي، العولمة وآليات التهميش في الثقافة العربية، المؤتمر الرابع حول الثقافة العربية في القرن القادم بين العولمة والخصوصية –جامعة فيلادلفيا– الأردن، ماي 1998، ص3.

24 – أحمد علي كنعان، الشباب الجامعي والهوية الثقافية في ظلّ العولمة الجديدة، مقال بمناسبة احتضان دمشق للثقافة العربية 2008. ص 419.

25– هانس–بيتر مارتن–هارالد شومان، فخ العولمة الاعتداء على الديمقراطية والرفاهية، تر: عدنان عباس علي، مرا: رمزي زكي، عالم المعرفة، الكويت، 1998، ص55–58.

26 – روجيه غارورديه، العولمة المزعومة –الواقع–الجذور–البدائل، تع: محمد السبيطلي، دار الشوكاني للنشر والتوزيع، صنعاء اليمن، 1998، ص17.

27 – علي حرب، صدمة العولمة في خطاب النَّخبة، جريدة السفير، العدد 8012، 6 حزيران 1998.

28 – ينظر: مالك بن نبي، شروط النهضة، تر: عمر كامل مسقاوي–عبد الصبور شاهين، دار الفكر، سوريا، 1986، ص 156.

29 – أحمد عبد الله العلي، العولمة والتربية، دار الكتاب الحديث، الكويت، 2002، ص 21.

30 – موسى عبد الله، رؤيتنا الثقافية وتحديات العولمة، مجلة النبأ، عدد 2001، ص 59.